

لا يأس... مع السلام

ليست هذه دعوة للسلام فقط .. ولكنها صرخة من أجل الحياة ذاتها.. و دفاعا عن الأمل بمعناه الكبير فى كل شئ .. (لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة).

وقد قال الشاعر أبو الطيب التنبئ :

“إذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام”

لقد تعبنا كثيرا و حاربنا طويلا من أجل عيون السلام طوال نصف قرن من الزمان و ذهبت اجيال و تعاقبت أخرى و نحن ما زلنا نتقطع انفسنا فى هذا الماراثون الطويل و دائما و قبل بضعة امتار من خط النهاية فى السباق او لحظات من الجولة الحاسمة فى المفاوضات يرمى أحدهم حجر عثرة فى مضمار السباق ليتساقط المتسابقون او تتعطل المسيرة ... لحاجة فى نفس يعقوب و ما أكثر حاجات يعقوب فى نفوس هؤلاء.. فى الداخل و الخارج

و يتساوى جميعهم فى الغرض او المرض ..بداية بدور القوى الخارجية التى لها مصالح اقتصادية و سياسية و توسعية مرورا بالفئة الداخلية ذات الاهداف الجهوية او المنفعة القبلية و العشائرية..نهاية بنوايا الفرد صاحب الاجندة الخفية فى الحصول على قطعة سكنية او ارض زراعية او صفقة تجارية او دون ذلك بكثير و لكنها فى نظره أكبر من هموم الوطن الذى أدمن القتال و تعاطى الصراعات و لان للوطن ربا يحميه فقد ظل و اقفا حتى اللحظة و لان للفئة طمعا تخفيه فما زالت عازفة عن الحوار.. ثم ماذا بعد ؟؟

أقول من خبرتى المهنية و تجربتى العملية فى فهم عناصر سيكلوجية الاشاعة و ديناميكية دوافع الياس و كيفية التسرب الى نفوس الناس من فرط الشك و الوسواس خاصة فى القضايا المصيرية فانه فى غياب المعلومة الصحيحة و التنوير الملتزم و التجرد فى الطرح و الاخذ بالاسباب المشبعة بالوضوح و الشفافية فان الياس يتسرب الى النفوس كما يتسرب النبع الثرثار من شقوق الجدار و يندفع بقوة تنسف اقوى المتاريس و اعنى السدود لان (الارض الواطئة تشرب ماء غيرها) ولقد عشنا هذه التجارب فى الماضى و لكننا قليلا ما نتعظ و كثيرا ما تأخذنا العزة بالاثم

دعونا نسترجع من ارشيف الذاكرة(اتفاقية اديس ابابا) كيف تمت ؟ و ماذا حققت ؟ ولماذا انهارت؟ و ماذا خلفت ؟ (مجرد فلاش باك) للذكرى و الذكرى تنفع المؤمنين

و دعونى استدعى من ذاكرتى قبل اكثر من عام خلال مفاوضات(ماشاكوس) فى كينيا عندما انسحب الوفد السودانى من المفاوضات لان الطرف الاخر اخل با اتفاق وقف اطلاق النار و استولى على

مدينة (توريت) عام 2003 و كانت خطوة كافية لوقف المسيرة المتعسرة منذ البداية و عودة الوفد الى الخرطوم لكي نبدأ من الصفر عندما قدر لها العودة ... و تذكرت بالم شديد كيف ان مدينة (توريت) تحديدا و اصلا يحفظ لهل التاريخ انها اول شرارة اندلعت منها نار الفتنة بعد الاستقلال مباشرة.. ليس ذلك فقط و انما اذكر اننى عندما انتقلت الى العمل فى الاستوائية عام 1968 لم يكن من الممكن الوصول الى مدينة (بور) و هى الدائرة الانتخابية لأكبر دعاة السلام من القادة الجنوبيين و هو نائب رئيس الجمهورية السابق السيد (أبيل الير) و تحت قيادة اللواء الراحل الشريف الحبيب قائد القيادة الجنوبية فى مدينة (جوبا) بينما كانت (توريت) بالكامل تحت سيطرة (المتمردين) و الذين لم يجرؤا بعد على تسمية انفسهم (حركة تحرير) تحضر المؤتمرات و تعقد المفاوضات تحت مظلة هيئات دولية بينما عادت (توريت) فى هذه الحقبة و خوال فترة المفاوضات باكملها تحت السيطرة الكاملة للقوات الحكومية

و فى أدبيات الحرب التى تقرر مبدأ الكرو و الفرما ذا يضير الحكومة ان تسقط راية و ترتفع اخرى حتى يتثبت الواقع و يستقر الامن و يوقع الاتفاق ؟

فى هذه الفترة زار الامارات العربية المتحدة و فد رسمى يشرح مسيرة مفاوضات السلام و بروتوكولات (ماشاكوس) و قد قدمت السفارة السودانية مشكورة كالعادة الدعوة لاعضاء الجالية لحضور اللقاء فى المستشارية الاقتصادية فى ابوظبى و بعد الحديث الطويل حول قضايا السلام و عن شئون و شجون المغتربين تطرق الحديث الى حقيقة النزاع القائم فى (دارفور) و قلت لمعالى الوزير (اننى أعتبر نفسى من عواجيز الفرح فى هذا العرس السودانى و لكننى أحد قدامى شواهد العصر لقضية الجنوب و ارى ان الفارق بين كل هذه القضايا (جغرافية) المنطقة و لكن الاجندة السياسية و احدة و قد يجانبنا الصواب اذا نظرنا اليها بغير ذلك و سوف نعيد البصر كرتين و ثلاث و اكثر اذا فاتنا ان القاسم المشترك الاعظم بين كل هؤلاء واحد... فهناك ضرورة فى ان ننظر الى ما يجرى انه حلقة من النزاع القائم فى الجنوب و لكنه مجرد ترتيب أولويات فى مسار المفاوضات... فقال لى فى نظرة مستفسرة و لهجة مستنكرة. (هل تعتقد ان كل من يرفع السلاح فى وجه الحكومة تطأخى له راسها و تستجيب لمطالبه ؟؟ حتى نجد السودان و قد تمزق الى أجزاء ؟؟ اننا ينبغى ان نحفظ هيبة الحكومة).

فقلت له فى هدوء شديد : اننى أرى ضرورة التعامل مع هؤلاء على انهم اصحاب رؤية قد نختلف او نتفق معهم قبل ان يصبحوا اصحاب قضية يذهبون بها الى الخارج و لن ينفعنا وقتئذ ان نقول انهم متمردون أ و قطاع خرق لان هناك (عرابون) فى الداخل و الخارج يسدون لهم النصح و يقدمون لهم العون و يرسمون لهم الخطط و يفتحون لهم المعسكرات و يصعدون بهم المنابر و قد يرمون بهم الى التهلكة من اجل ان ينفذوا من خلالهم الى الداخل و لاشك انهم فاعلون كأجراء او عملاء او شركاء او خبراء يتقاضون اتعابهم بالعملية الصعبة و نحن الذين نسد فاتورة السلاح و نفقات

السفر و الإقامة فى الفنادق الفاخرة و نصيحتى ان تستمعوا الى ما يقوله ابناء دارفور و البجا و ...!! فهذه قنابل موقوتة تنتظر الوقت المناسب للانفجار و لكن حسب توقيت أو لئلك المنتفعين من الخراب و الدمار و اردت انؤكد ان الواقع السياسى فى السودان و الوضع الدولى الراهن يقتضى ان نتعامل مع ملف السلام... صفقة واحدة...يربطها قاسم مشترك مختبئ فى تفاصيل البروتوكولات لان المخطط المرسوم و المتفق عليه يضم كل هذه الاجزاء فى كل واحد و يضع كل هذه القضايا فى سلة واحدة يبيعها بالاقساط المريحة للمفاوض المتعجل حتى يحصل على اكبر قدر ممكن من الربح فى تسويق سلعة السلام و ما لم ندرك هذه الحقيقة سوف نضيع فى وهم سلام التجزئة.. و نجد ان الثمن المدفوع لكل جزء منفصلا اعلى بكثير من الثمن الاجمالى الذى ندفعه لكل هذه القضايا مجتمعة بخطاب اعتماد واحد و بتوقيع أخير و نافذ المفعول

عود على بدء .. يقينى ان المسئول لم يستمتع بلقائى و لم يستمع لندائى و الذى ربما ظن به كل الظنون و قد أخذنى احد الظرفاء المدعويين جانبا قائلا: يا اخى انت مدعو الى حفل عشاء ام ليلة سياسية؟ قلت له : ان دعوة العشاء كانت وسيلة للقاء و ليس بديلا للنصح و اختلاف الاراء و الدين النصيحة و الساكت عن الحق شيطان أخرس !!

و عاد المسئول الى الخرخوم و لم تنقض بضعة اسابيع حتى انفجر الوضع الامنى فى (دارفور) و تسارعت وتيرة الاحداث بصورة لم تخطر ببال اكثر المتشائمين .. و شاهدنا كيف تخرج المشكلة القبلية القديمة المتجددة من داخل قطر ظل حتى وقت قريب يشكو العزلة فى المحيط الاقليمى و الدولى فى أكبر قضاياها المصيرية الموروثة من الاستعمار منذ عقود ليجد نفسه فجأة و دون استئذان يحتل الصدارة فى أجندة مجلس الامن العالمى و الذى وصلت درجة اهتمامه مرحلة افقدته الوقار و احترام الاخجار فى المقر الرئيسى و قرر للمرة الثانية فى تاريخه الملىء بالاخفاقات الخروج الى افريقيا- و التى تئن تحت و خآة قضايا انسانية فوق التصور- ليناقدش مشكلة صعب علينا ان نستوعب حجمها فى ابوظبى و نحن أهل الدار و اصحاب القرار.. و لله فى خلقه شئون!! و بعد ان كان فى حالة بيات شتوى و موات دماغى فى غرفة العناية المركزة منذ عقود تم استدعاء فريق المتخصصين فى صنع المعجزات و كتابة الوصفات فى كل الازمات من بقايا المتأمرين القدامى و المحافظين الجدد !!

عود على بدء.. و حتى لا نجد انفسنا نتعثر فى هذا المشوار الطويل الذى استمر لعدة قرون و نحن دائما ما نتوقف عند محطات مظلمة ليس لها عنوان و اضح يدل على ملامح الطريق او هكذا يراد لنا ان نمشى فى هذا الدهليز المظلم من المفاوضات فى عدة اتجاهات دون بوصلة واحدة تحدد لنا القبلة التى نصلى عليها

ان هذه القنابل الموقوتة التى تنفجر دون انذار و هذه الانذارات المتناقضة التى تتساقط علينا من كل الوسطاء و الاوصياء و هذه العقوبات الجائرة و النذر المتطاييرة هى بالونات اختبار ستظل الهاجس المستمر لزراع الياس فى نفق المفاوضات المشحون بالسهام الطائشة و الشرر المتطايير من مخابئ الاستهداف

وعلىنا امام هذا الواقع المؤلم والمتقلب والمظلم احيانا الا نستسلم للياس او نسلم رقابنا لسكاكين المفاجات وما اكثرها لنقع فريسة الوهم فى مصداقية القرارات و التى تصدر من هنا وهناك كلما وصلنا الى مرحلة قرار او لحظة انتصار او حرية خيار من الخيارات الصعبة المترددة والمتعددة و التى ينبغى ان تنزل الى الارض حتى تؤكد قوة الايمان و صدق النوايا و صلابة الارادة باننا قادرون على حل قضايانا ليس بمعزل عن مساعدة الاخرين و ليس قفزا فوق الاعراف و القوانين الاقليمية و الدولية و لكن دون شروط تسلبنا حرية اتخاذ القرار.. ولا ياس مع السلام و لا سلام مع الياس.
ولنا عودة ..باذن الله

دكتور الزين عباس عمارة..... ابوظبى